مركز الملك فيصل للبحوث والدراسات الإسلامية
King Faisal Center for Research and Islamic Studies

مسارات

سعي إيران المتزايد لتثبيت موطئ قدم استراتيجي لها في مرتفعات الجولان

هل هي مجرد تهديدات أم نذير لخطر قريب؟

ملخص
مقدمة
مسار النفوذ الإيراني من طهران إلى البحر الأبيض المتوسط
نموذج حزب الله: مخطط لاستراتيجية إيران في مرتفعات الجولان؟
روسيا وإيران في جنوب غرب سورية
هل تؤدي جميع الطرق إلى موسكو؟
رسم خريطة قوة الردع الإسرائيلي
التوقعات المستقبلية

رقم الإيداع بمكتبة الملك فهد الوطنية:
١٤٤٠/٢٨٦٧
ردمد: ١٦٥٨-٦٩٦٤

”ما حدث في حي الضاحية في بيروت في العام ٢٠٠٦ هو ما سيحدث أيضاً في أي قرية لبنانية إذا ما أطلقوا النار منها على إسرائيل، وسنفعّل ضدها قوة غير متناظرة تتسبب في ضرر ودمار بالغين.“

غادي إيزنكوت، رئيس أركان الجيش الإسرائيلي

ملخص

إن الدور الإيراني الذي أعيد تأجيجه، ولكن بدرجة أكثر خطورة في سورية، لهو دليل على جهودها لتوسيع عمقها الاستراتيجي، الذي يمتد من العراق، إلى قلب المناطق التي يسيطر عليها العلويون في سورية، وإلى شواطئ البحر الأبيض المتوسط في كل من سورية ولبنان. في هذا السياق، يمثل الحرص على فرض نفوذها في مرتفعات الجولان عنصراً حيوياً في صراعها الكبير لربط نقاط الهلال الذي تسيطر عليه إيران عبر بلاد الشام.

من خلال القيام بذلك، من المرجح أن تستفيد إيران من الدروس العملية ، التي نجحت في معظمها، إلى حد كبير، والاستفادة جيداً من الوسائل التي جربتها بالفعل في ميدان صراعها السياسي، أي دعم القوات التي تقاتل عنها بالوكالة. إن دعم حزب الله حليف إيران اللبناني وتنصيبه عدواً ضد إسرائيل يقدّم مثالاً واضحاً لذلك، ونتيجة لذلك أصبح حزب الله، من وجهة نظر طهران، لاعباً متجذّراً في لبنان لا غنى عنه، ولاعباً مستقلاً إلى حد ما في كل من لبنان وسورية. ومع تزايد انخراط إيران في جنوب غرب سورية، بما في ذلك مرتفعات الجولان، تنافس طهران بقوة لإثبات دورها المستقل الأكثر تأثيراً على الميدان السوري في المستقبل المنظور.

كإجراء مضاد، تحاول إسرائيل التصدي لهذا التهديد المتزايد على طول حدودها الشمالية مع سورية ولبنان. إذ يبدو في الوقت الحالي، أنها عازمة على التمسك بما تراه ضمن قواعد اللعبة: تنفيذ سياسة احتواء استباقية ضد العناصر الإيرانية والعناصر الأخرى المرتبطة بإيران والتي تعمل بالوكالة لصالحها، من خلال اللجوء إلى ضربات انتقامية دقيقة للحفاظ على مدى مصداقيتها وقدرتها على الردع.

هناك أيضاً عنصر أكبر في هذه التفاعلات. إن طريقة وأسلوب التنافس الإسرائيلي - الإيراني في سورية له تداعيات ملموسة أيضاً على كل من الرعاة والحلفاء. وهو ما اتضح مع الضربات الأمريكية - البريطانية - الفرنسية رداً على مزاعم استخدام الأسلحة الكيميائية في دوما من قبل نظام الأسد، الاعتراف بدور روسيا الضمني المؤثر في الساحة فهي للبعض تغض بصرها عن التحركات الإيرانية في سورية، وأما للآخرين فهيا قوة قادرة على كبح جماح طهران، وأنها قناة حيوية يمكن أن تستجيب للمخاوف الإسرائيلية الأمنية، وأنها المفتاح لمنع أي شكل من أشكال التصعيد في سورية.

المقدمة

مع تسارع الأحداث والتطورات الأمنية في الشرق الأوسط، برز حدث واحد في العاشر من فبراير من العام ٢٠١٨، حينما اقتحمت طائرة جوية إيرانية بدون طيار الأجواء الإسرائيلية فوق مرتفعات الجولان في مهمة استطلاع مزعومة. وبعد تحقيقات مكثفة مبنية على معلومات استخباراتية، كشف الجيش الإسرائيلي في الثالث عشر من أبريل أن الطائرة بدون طيار قد تم تسليحها ولديها أوامر بالهجوم.[1] واتضح أن هذا الحدث سيؤدي إلى

(1) AP, "Israel Says Iran Drone Downed in Feb was on Attack Mission," Washington Post, April 13, 2018, https://www.washingtonpost.com/world/middle_east/israel-iran-drone-intercepted-in-feb-was-on-attack-mission/2018/04/13/4e8ba21e-3f41-11e8-955b-7d2e19b79966_story.html?noredirect=on&utm_term=.31a62d726d04.

سلسلة من الأحداث التي ستشكك بمعادلة الردع التي تم زرعها ضمنياً واحترامها من قبل جميع الأطراف المشاركة منذ حرب لبنان عام ٢٠٠٦[٢].

وبعد الإسقاط الفوري للطائرة الإيرانية من قبل طائرة مروحية من طراز أباتشي، شنت إسرائيل ضربة انتقامية ضد منصة إطلاق الطائرة بدون طيار في قاعدة التياس العسكرية T4 الواقعة في الريف الشرقي لمنطقة حمص بالقرب من مدينة تدمر السورية. ومن جانبها ردت سورية بإطلاق نيران الصواريخ المضادة للطائرات وأصابت إحدى الطائرات الحربية المهاجمة من طراز F-16 وهو ما تسبب في تحطمها في داخل إسرائيل. وقامت القوات الجوية الإسرائيلية بشن ضربة أخرى تستهدف بطاريات الصواريخ المضادة للطائرات ومواقع عسكرية إيرانية منتشرة على الأراضي السورية.

إن حجم هذا التصعيد المتسارع بين العدوين اللدودين إيران وإسرائيل وصل مرحلة حساسة لأنه يعد الأول من نوعه بوصفه مواجهة مباشرة بين البلدين منذ بداية الصراع السوري في العام ٢٠١١. ومن خلال تدقيق سريع يبدو أن إيران تعمدت اختراق المجال الجوي للعدو، مخاطِرة بذلك عواقب الانتقام المحتمل الذي سيحل على سورية ولبنان على حد سواء. وهذه خطوة مدروسة من طهران لاختبار طبيعة الاستجابة العسكرية لإسرائيل والاستفادة من دروس قيمة حول سلوك إسرائيل.

أما بالنسبة لإسرائيل فإن التعدي الإيراني في غرب سورية سيعيق مبدأها الرادع في بعض الأحيان والمستقر إلى حد كبير تجاه منافسها التقليدي، حزب الله اللبناني الموجود على حدودها الشمالية.[٣] وفي الوقت نفسه فإن سعي إيران وبمساندة من حزب الله لفتح جبهة أخرى عن طريق اتباع نهج مزدوج على طول الحدود الثلاثية لإسرائيل ولبنان وسورية يعد الطريقة المفضلة لإخضاع السلطة الإسرائيلية في منطقة ذات نفوذ إيراني متنامٍ في أجزاء أخرى من سورية.

مسار النفوذ الإيراني من طهران إلى البحر الأبيض المتوسط

تحتوي استراتيجية إيران على عوامل طموحة وخطيرة بالوقت نفسه. فالدور الذي تسعى له طهران يتعلق بتأسيس موطئ قدم لوجيستي وعسكري في مرتفعات الجولان، وربطه بالبنية التحتية والقدرات التنفيذية لحزب الله الحالية. والسيطرة جغرافياً ببطئ على جزء من الجولان السوري تضمن وصولاً آمناً لسلسة جبال القلمون ذات الأهمية الاستراتيجية الممتدة على طول الحدود السورية - اللبنانية[٤]. وتوفر هذه الهضبة الصخرية في جنوب غرب سورية مأوى منعزلاً ومرصاد تكتيكي يمكن من خلاله تدمير المخابئ المتبقية لأفراد الميليشيات المناهضة لنظام الأسد وتأمين العاصمة دمشق من الجهة الغربية الضعيفة.

وتحاول إسرائيل في المقابل التصدي لهذا التهديد المتزايد على طول حدودها الشمالية. إذ يبدو في الوقت الحالي أنها

(2) Rory Jones, "Tension Rises between Israel and Iran after Syria Clash," *Wall Street Journal*, February 11, 2018, https://www.wsj.com/articles/israel-vows-more-aggression-to-stop-iranian-military-expansion-in-syria-1518358488.
(3) Emile El-Hokayem, "Hizballah and Syria: Outgrowing the Proxy Relationship," *Washington Quarterly* (Center for Strategic and International Studies and Massachusetts Institute of Technology), 30, no. 2 (2007): 35.
(4) Rhys Dubin, Hezbollah's Diplomacy in Qalamoun, SyriaSource by the Atlantic Council, March 1, 2017, http://www.atlanticcouncil.org/blogs/syriasource/hezbollah-s-diplomacy-in-qalamoun.

عازمة على تنفيذ سياسة احتواء استباقية ضد العناصر الإيرانية والعناصر الأخرى المرتبطة بإيران والتي تعمل بالوكالة لصالحها. بهذه الاستراتيجية لا تستطيع إسرائيل أن تمنع البناء العسكري لإيران، ولكنها تستطيع تأخيره. ومن ثم فإن تثبيت موطئ قدم عسكري مستقل لإيران بالقرب من إسرائيل قد يستغرق سنوات عدة.

وفي ظل هذه التوترات المتصاعدة بشأن مرتفعات الجولان، حذرت الحكومة الإسرائيلية مراراً من الجهود الإيرانية الساعية لتعميق التزامها لدى الجانب السوري المجاور للمنطقة منزوعة السلاح التي تسيطر عليها الأمم المتحدة على امتداد الجولان. في أعقاب الضربات التي قادتها الولايات المتحدة ضد سورية في الخامس عشر من أبريل من العام ٢٠١٨، أكد اثنان من أعضاء الحكومة الإسرائيلية التزام حكومتهما الراسخ باعتراض أي وجود عسكري إيراني دائم في سورية.(٥)

وهذا الخوف ناجم عما تعتبره إسرائيل تحولاً جذرياً لسورية من ممر عابر للأسلحة الإيرانية المتجهة إلى لبنان إلى ساحة لأنشطة عسكرية مباشرة محتملة، فاحتمالية تطوير إيران وحزب الله القدرة على القيام بالضربة الأولى يعد كابوساً مروعاً لإسرائيل(٦)، وهو سيناريو سيقلب أي سياسة دفاعية رادعة رأساً على عقب. ولذلك خلال السنوات الماضية، عملت إسرائيل على مواجهة احتمالية إنشاء بنية تحتية عسكرية، وإنشاء مصانع للصواريخ الإيرانية والقوات التابعة لها في سورية، والحد من الانتشار في الأراضي التي يسيطر عليها حزب الله.

في شهر سبتمبر ٢٠١٧، شنت إسرائيل غارات جوية على مواقع عسكرية داخل سورية، بحجة إيوائها صواريخ متطورة ومرافق لإنتاج الأسلحة الكيماوية. حمل شهر مارس من العام ٢٠١٧ دلالات على قيام إسرائيل بجهود وقائية لمنع وصول أسلحة متطورة لأعدائها. واستهدفت بالوقت نفسه موقعاً عسكرياً بالقرب من تدمر، حسبما قال الجيش السوري، وهو ما يعد أعمق نقطة تخترقها القوات الجوية الإسرائيلية داخل الأراضي السورية حتى الآن، وهو ما حدا بالقوات السورية إلى إطلاق صواريخ مضادة للطائرات، حيث تم اعتراض تلك الصواريخ بواسطة نظام دفاع صاروخي إسرائيلي "آرو" يستخدم لأول مرة.

ونفذت إسرائيل طوال العام ٢٠١٣ العديد من الهجمات التي استهدفت عربات النقل العسكرية في ضواحي دمشق والتي تزعم أنها تورّد لحزب الله. وفي الثاني عشر من يناير من العام ٢٠١٥، قصفت القوات الجوية الإسرائيلية قافلة عسكرية سرية بالقرب من مزرعة الأمل في محافظة القنيطرة السورية. وكان من بين الضحايا المؤكدين جهاد نجل القائد العسكري عماد مغنية وكذلك الجنرال محمد علي الله دادي من الوحدات الإيرانية الخارجية لفيلق القدس التابع للحرس الثوري الإيراني(٧). وفي التاسع عشر من ديسمبر من العام نفسه، قُتل سمير القنطار، الدرزي اللبناني وعضو منظمة التحرير الفلسطينية إثر انفجار وقع في ضواحي دمشق بزعم توليه مهمة المنسق الأعلى لحزب الله وقيادة عمليات التجنيد على سفوح مرتفعات الجولان. يذكر أنه قضى ما يقارب من ٣٠ سنة في سجن إسرائيلي واطلق سراحه في العام ٢٠٠٨. وسرعان ما أتى انتقام حزب الله من خلال نصب كمين لسيارات عسكرية إسرائيلية، تسببت في قتل جنديين وإصابة ٧ منهم بالقرب من مزارع شبعا التي تحتلها إسرائيل في مرتفعات الجولان(٨).

ظهر أسلوب مماثل في أواخر نوفمبر من العام ٢٠١٥، حينما استهدفت الهجمات الجوية الإسرائيلية تدمير

(5) AFP, "Israeli Ministers Speak Out against Iranian Entrenchment in Syria," YnetNews, April 15, 2018, https://www.ynetnews.com/articles/0,7340,L-5230854,00.html.
(6) A. R Norton, "*Hezbollah—A Short History*" (Princeton, NJ: Princeton University Press, 2007), 133, 134
(7) Saeed Kamali Dehghan, "Top Iranian General and Six Hezbollah Fighters Killed in Israeli Attack in Syria," *Guardian*, January 19, 2015, https://www.theguardian.com/world/2015/jan/19/top-iranian-general-hezbollah-fighters-killed-israel-attack-syria.
(8) Jodi Rudoren and Anne Barnard, "Hezbollah Kills 2 Israeli Soldiers Near Lebanon," *New York Times*, January 28, 2015, https://www.nytimes.com/2015/01/29/world/middleeast/israel-lebanon-hezbollah-missile-attack.html.

انتشار الأسلحة المزعزعة للاستقرار (صواريخ أرض - جو متقدمة وأسلحة دمار شامل محتملة). وترى إيران أنها للحفاظ على تدفق الدعم اللوجيستي والأسلحة والتعزيزات من سورية إلى معاقل حزب الله في مدينة البقاع بجنوب لبنان والعكس كذلك[٩]. وفي أوائل ديسمبر ٢٠١٦، أصابت عدة صواريخ أرض - أرض إسرائيلية قاعدة المزة العسكرية السورية جنوب غرب دمشق. وفي أبريل من العام ٢٠١٧، أسفر هجوم إسرائيلي على معسكر سوري تابع لقوات الدفاع الوطني الموالية للحكومة عن مقتل ثلاثة مقاتلين بالقرب من مرتفعات الجولان وإصابة آخرين بالقرب من محافظة القنيطرة في جنوب غرب سورية.

ويعرف أن إيران توفر لكل من سورية والعراق مساعدات عسكرية واستشارية حيوية من خلال فيلق القدس التابع للحرس الثوري الإيراني، حسبما ذكر نائب رئيس الأركان في القوات المسلحة الإيرانية اللواء مسعود جزايري. وبالإضافة إلى تثبيت حزب الله المدعوم إيرانياً في الحرب الأهلية السورية، فإن دور طهران المتجدد دليل على جهدها الكبير في توسيع وتوطيد عمق استراتيجي يمتد من العراق، إلى قلب المناطق التي يسيطر عليها العلويون في سورية، وإلى شواطئ البحر الأبيض المتوسط في كل من سورية ولبنان. وفرض نفوذها في مرتفعات الجولان لكي تصبح عنصراً حيوياً في صراعها الكبير لربط نقاط نفوذ الهلال الذي تسيطر عليه إيران عبر بلاد الشام.

وبذلك، ستستفيد إيران من الدروس العملية في مشروعها الناجح الذي دام عقداً من الزمان في دعم حليفها اللبناني ضد إسرائيل. ومع تزايد انخراط إيران في سورية، تنافس طهران بقوة لإثبات دورها المستقل بوصفها لاعباً حيوياً مؤثر لا غنى عنه على الميدان السوري في المستقبل المنظور.

نموذج حزب الله: مخطط لاستراتيجية إيران في مرتفعات الجولان؟

في مايو ٢٠١٤، صرّح حسين همداني القائد العسكري الأعلى في الحرس الثوري الإيراني، الذي قُتل لاحقاً على أيدي تنظيم الدولة الإسلامية في حلب، أن إيران قد شرعت بالفعل في إنشاء «حزب الله» ثانٍ في سورية[١٠]. ومع ذلك فإن الجهود الإيرانية المتعلقة بالتجنيد والانتشار قد بدأت منذ العام ٢٠١٢، فمن حينها وطهران تركز على جلب الميليشيات الشيعية العراقية واللبنانية من أجل إنشاء شبكة من الخلايا تتسم بالحرية والثبات الأيدولوجي وتساهم في تعزيز إظهار القوة الإيرانية في وقت لا يكاد يضمن فيه بقاء نظام الأسد.

من بين أبرز هذه المجموعات هي مجموعة لواء أبو الفضل العباس (لافا) التي كانت من الألوية الشيعية الرئيسة في سورية في ذلك الوقت. فقد نجحت (لافا) في جذب اللاجئين الشيعة العراقيين المستقرين في بلدة السيدة زينب على بعد ١٠ كيلومترات من جنوب دمشق. ونظراً لطريقة طهران في حشد الجماعات عبر الحدود، استطاعت (لافا) تجنيد عناصر من الميليشيات الشيعية السورية الموالية للنظام، بينما أوكلت مهام القيادة العسكرية لنظرائهم العراقيين المتمرسين بالقتال. وبالرغم من أن أدلة انخراط إيران في تجنيد الميليشيات ذات الأصول الباكستانية والأفغانية

(9) ASaad Ghorayeb, *Hizbu'llah: Politics and Religion* (London: Pluto Press, 2001), 112, 113.
(10) Adam Chandler, "An Iranian General Is Killed in Syria," *Atlantic*, October 9, 2015, https://www.theatlantic.com/international/archive/2015/10/an-iranian-general-killed-in-syria/409963/.

موثقة وتتضح من خلال الانتشار العلني لكتائب المقاتلين الشيعة في العراق خلال السنوات الماضية، إلا أنها في الميدان السوري تلجأ إلى أساليب مدروسة وخفية من أجل تعتيم المساءلة المباشرة خلال المراحل الأولى من الصراع السوري. ومن خلال القيام بذلك، فإن التدخل الإيراني في سورية يكمن في مجالات الخدمات الاستشارية الاستخباراتية، ولكن سرعان ما بدأت في التحول إلى المساهمة في القيادة والمراقبة العسكرية[١١] بشكل مباشر بحجة طلبات رسمية أتت من حليفها في دمشق.

وحالياً وبعيداً عن حجم المشاركة ونطاقها، فإن طبيعة الأنشطة العسكرية التنفيذية لطهران وما يرتبط بها جغرافياً هي التي توفر دروساً قيمة لفهم أعمق لما تقوم به إيران في مرتفعات الجولان في الآونة الأخيرة. ففي العام ٢٠١٣ و٢٠١٥ قدمت إيران تدريبات استخباراتية وشبه عسكرية لصالح قواتها اللبنانية الموالية "حزب الله" وهو ما أدى إلى توجيه المتمردين من المواقع الاستراتيجية حول مدينة القصير في شهر أبريل من العام ٢٠١٣، والحصار الناجح لمدينة الزبداني السورية في شهر يوليو من العام ٢٠١٥. فكلا المدينتين مهمتان من الناحية الاستراتيجية وتعدان بوابات حارسة على طول الحدود السورية - اللبنانية. وبالنسبة لمدينة القصير، فقد كان هناك عدد من الدلائل المشيرة إلى أن قاسم سليماني، قائد فيلق القدس في الحرس الثوري الإيراني، كان العقل المدبر وراء العملية بأكملها[١٢]. ومن دواعي السخرية أن إيران أصدرت بياناً رسمياً بعد انتهاء العملية تهنئ به الشعب السوري على فوزه[١٣].

وقد أثبتت المعركة أهمية حاسمة، حيث تجسد المناطق الداخلية بين المدينة والحدود اللبنانية عدداً من النقاط الجيوسياسية الشائكة: فالمنطقة تعد موطناً لمعظم أفراد الطائفة الشيعية غير العلوية والعشائر من منطقة الهرمل اللبنانية المجاورة. وقد أدى تعزيز الدعم المحلي هناك بإنشاء منطقة عازلة إلى تضخيم القوة العسكرية لدى حزب الله في المنطقة الحدودية، وتشكيل إنجاز يتردد صداه إلى الآن. أما بالنسبة للحكومة السورية وحزب الله فإن الاستيلاء على مدينة القصير ساهم في ربط العاصمة دمشق بمدينة حمص، ومنح الجيش السوري إمكانية الوصول إلى المحافظات الساحلية المطلة على البحر المتوسط التي يحكمهما العلويون في اللاذقية وطرطوس. وفيما يتعلق بتحرير الزبداني بقيادة حزب الله ودعم إيران في العام ٢٠١٥، فإن كلتا العمليتين قدمتا ممراً حراً للعناصر الإيرانية من أجل مزيد من التحكم والتوسع إلى المناطق الجنوبية، حيث تعد المدينتان بمنزلة مراكز رئيسة للحرس الثوري الإيراني لإمداد حزب الله في لبنان.

وعلى الرغم من نجاح العمليتين إلا أنها قد أتت مقابل ثمن باهظ، حيث ازدادت أعداد التوابيت الخاصة بقتلى حزب الله، وأضيفت إلى الرقم المظلم للحالات التي لم يتم الإبلاغ عنها، والتي تصاعدت على الأرجح بأكثر من ألف حالة منذ عودتها إلى حي الضاحية المعقل الرئيسي لحزب الله في جنوب لبنان. مثل هذه الصور الرمزية الحادة لا تهدد الحاجة لتجنيد مقاتلين جدد فقط بل أيضاً تهدد بزعزعة التوازن واستغلال المجموعة بوصفها حزباً سياسياً في لبنان.

ومن المحتمل أن تتصرف طهران بحذر شديد مستقبلاً بعد تزايد استياء المجتمع الإيراني بسبب تكاليف المغامرات الإيرانية في سورية وخارجها، ولكنها بطبيعة

(11) "Mounting reports of Iranian casualties also served as an indicator of the ongoing shift from senior-level IRGC advisement to direct IRGC field command over pro-regime forces. Rebel forces killed and beheaded IRGC-GF Brigadier General Abdollah Eskandari on May 28, 2014 near the town of Morek in northern Hama Province . . . the presence of these senior Iranian officers in such close proximity to active frontlines suggests that IRGC commanders have directly embedded with pro-regimes forces on the battlefield." Institute for the Study of War (ISW), "The Regime's Strategic Objectives," May 21, 2015, adapted from the ISW report, "'An Army in All Corners': Assad's Campaign Strategy in Syria," April 2015, http://iswresearch.blogspot.com/2015/05/.

(12) Dexter Filkins, "The Shadow Commander," *New Yorker*, September 30, 2013, https://www.newyorker.com/magazine/2013/09/30/the-shadow-commander.

(13) Martin Chulov, "Syrian Town of Qusair Falls to Hezbollah in Breakthrough for Assad," *Guardian*, June 5, 2013, https://www.theguardian.com/world/2013/jun/05/syria-army-seizes-qusair.

الحال لن تتوقف في توسيع نطاقها إلى الجنوب في مرتفعات الجولان. وبدلاً من المساهمة العسكرية المباشرة والمخاطرة بازدياد أعداد التوابيت المرسلة إلى طهران، فإن لدى إيران سبباً يدعو إلى التأمل فيما حدث في القصير والزبداني. ويتضمن ذلك التمسك بالقوات غير النظامية وكتائب العصابات العميلة التي بإمكانها العمل بالخفاء وتأسيس عدد من مراكز القيادات الموهة التي قد تندمج في الطبيعة الجغرافية بمرتفعات الجولان وسهولها الوعرة.

اعتباراً من ربيع العام ٢٠١٨، هناك ما يقرب من اثني عشر موقعاً إيرانياً أو مرتبطاً بإيران موزعاً في جنوب محافظة القنيطرة بجنوب غرب سورية. بالإضافة إلى أن إيران أضافت مزيداً من المواقع الجنوبية في المنطقة المجاورة لمدينة درعا على الحدود الأردنية[١٤].

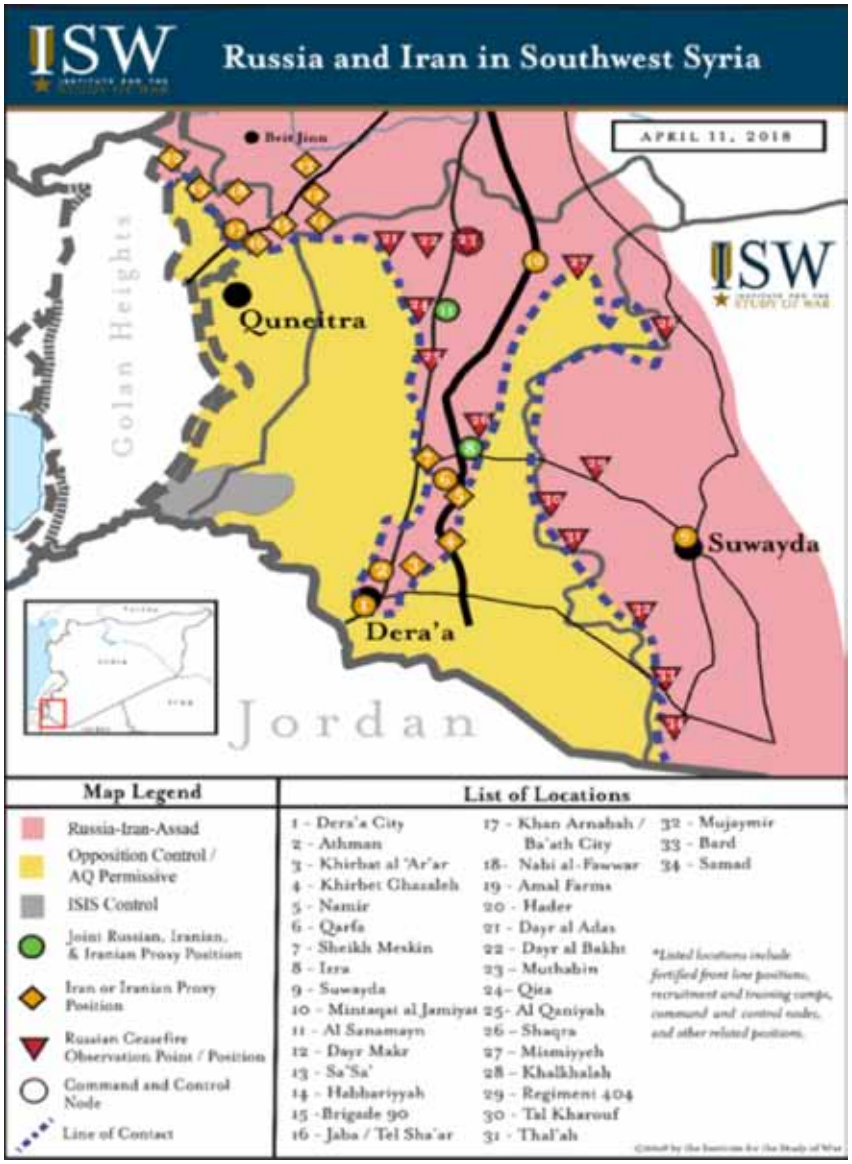

معهد دراسة الحرب، "روسيا وإيران في جنوب غرب سورية" (خريطة)، ١٢ أبريل ٢٠١٨

(14) Institute for the Study of War, "Russia and Iran in Southwest Syria" (map), April 12, 2018. http://www.understandingwar.org/sites/default/files/Map%20-%20Russia%20Iran%20in%20SW%20Syria_0.png

روسيا وإيران في جنوب غرب سورية

وبذلك قد تقوم إيران باتخاذ خطوات واسعة لتأمين محور جغرافي آخر. من خلال إنشاء نظام واسع من البؤر الدفاعية المتطورة والحيوية وممارسة الرقابة التكتيكية في مرتفعات الجولان، من أجل السيطرة على مساحات واسعة من المناطق الحدودية بين سورية وإسرائيل وسورية ولبنان. مثل هذه التكتيكات تعيد إلى الأذهان مشاهد التمرد التي قام بها الحليف الإيراني حزب الله والتي أدت إلى انسحاب القوات الإسرائيلية من جنوب لبنان في العام ٢٠٠٠.

وفي الوقت الحالي، وعلى الرغم من نفوذها المتنامي في المنطقة والخطوات الاستراتيجية والتكتيكة في فرض مصداقيتها في الجولان، إلا أن هناك شكاً في مخاطرة إيران بمزيد من التصعيد، بل من المرجح أن تتفادى إيران زيادة قدراتها المنتشرة حالياً عن طريق التعزيزات السرية المتواصلة. فالأحداث الأخيرة التي شملت القصف المتكرر للقاعدة الجوية T4 في التاسع من أبريل من العام ٢٠١٨ والمزعَم تنفيذها من قبل القوات الجوية الإسرائيلية من المجال الجوي اللبناني؛ قد تسببت في خسائر مباشرة، حيث تم الإبلاغ عن وفاة اثنين من الإيرانيين وإلحاق الضرر بالمرافق الإيرانية الموجودة. ومن ثم، ما دامت إسرائيل تحتفظ بمساحة للمناورة من أجل الانتقام بأسلوب دقيق، ستكون طهران حذرة بشأن نطاق وخطورة التحركات العملية المستقبلية في الجولان. وبالوضع الحالي، فإن إيران والقوات التي تقاتل عنها بالوكالة لا تميل ولا تستطيع الانتقام بشكل يزعزع من توازن الردع بشكل كاف. فحتى ذلك الحين، من المرجح أن يحدد نهج الثأر أي ديناميكية تصادمية بدلاً من المواجهة الشاملة.

هل تؤدي جميع الطرق إلى موسكو؟

عند إعادة النظر في أعقاب حادث الطائرة بدون طيار الذي وقع في العاشر من فبراير في مرتفعات الجولان، ساهمت جهود روسيا الدبلوماسية للحد من الأضرار وهي التي أخفت الآثار المحتملة لاندلاع المزيد من القتال. وتهدف موسكو على وجه الخصوص منذ تدخلها في سورية في سبتمبر ٢٠١٥ إلى التعامل مع تحقيق التوازن المتمثل في وجود علاقات براغماتية مع كل من إسرائيل وإيران حول سورية.

ولتوضيح أكثر، نسبت روسيا وللمرة الأولى أحداث هجوم أبريل على قاعدة T٤ الجوية إلى الطائرات الحربية الإسرائيلية. من المبكر معرفة ما إذا كان هذا الأمر يعد تحولاً كبيراً في سياسة موسكو، لكن التنديد العلني يمثل بالتأكيد ديناميكية جديدة. ومع ذلك ففي السنوات الأخيرة لم تدين روسيا إسرائيل على قصفها الموجه إلى حزب الله عبر سورية، وهذا لا يعني أن روسيا ستمنح إسرائيل تفويضاً مطلقاً في ممارسة القوة الجوية في سورية[١٥].

في حين أن العداوة بين إسرائيل وإيران قد نمت مع مرور الوقت، فالحفاظ على التعاون الفعال بالنسبة للرئيس الروسي فلاديمير بوتين فيما يتعلق بوقف النزاع والآليات

(15) Adam Chandler, "What's behind Israel's Diplomatic Flare-Up with Russia," *Atlantic*, March 24, 2017, https://www.theatlantic.com/international/archive/2017/03/israel-russia-syria/520410/.

الاستخباراتية مع إسرائيل[١٦] لا يمحي سجله التاريخي في دعم نظام الأسد أو إيران. بل على العكس، فإن سياسة الكرملين الخارجية تتنقل وتوجه من خلال التحديات الجيوسياسية الحالية دون تنفير أي من محاوريها المتعددين في الشرق الأوسط. ولتوضيح النقطة أكثر، كل من طهران وموسكو يؤمنان بأنه لا يوجد حالياً أي بديل موثوق لنظام الأسد قادر على الحفاظ على الحد الأدنى من الحكم في البلد الذي مزقته الحرب.

وفي نهاية المطاف، فإن العلاقة الخاصة بين روسيا وإسرائيل تثبت أن إسرائيل تمكنت بطريقة ما من التصالح مع الوجود الروسي في سورية، وعلى الرغم من أنها ساعدت إيران على الانتشار في الشام، إلا أن الجيش الروسي يمثل حجراً صحياً قادراً على السيطرة على طهران دبلوماسياً واحتواء اللاعبين خارج نطاق الدولة الذين قد يأججون الأوضاع المضطربة على الحدود السورية – الإسرائيلية. ومع ذلك فإن التقارب الروسي – الإيراني وربما السوري في إدارة الأزمات الإقليمية أمر مزعج للإسرائيليين، الذين يخشون في أسوأ الظروف تطوير ترسانات الصواريخ الإيرانية الموجودة مع قدرات نووية محتملة والتهديد الملموس للقوات المرتبطة بإيران المتمركزة في جنوب غرب سورية.

رسم خريطة عقيدة الردع الإسرائيلية

إذا كان تحصن حزب الله سيسهل من انتشار الأسلحة متوسطة المدى وطويلة المدى ذات المنشأ الإيراني في ضواحي مرتفعات الجولان المتنازع عليها، إلى جانب منطقة الحدود الثلاثية بين سورية ولبنان وإسرائيل، فإنها ستهدد كذلك معادلة الردع القائمة حالياً. فالتعدي الإيراني في الجولان سيزيد من خطر التصعيد العسكري، وسيؤثر على العناصر الإيرانية الموجودة في سورية، ووضع القوات التي تقاتل عنها بالوكالة في لبنان تحت المجهر. في مثل هذا السيناريو، سيزيد الجيش الإسرائيلي تكلفة المغامرة الإيرانية باللجوء إلى ضربات مدروسة مفرطة. وبالإمكان استخلاص دروس قيمة لتقييم مثل هذا السيناريو المتشائم من المواجهة المسلحة التي شهدتها حرب إسرائيل وحزب الله في صيف العام ٢٠٠٦.

ففي ذلك الوقت، تمكن الجانبان من إلحاق أضرار جسيمة أحدهما بالآخر، وهو ما يفسر الثبات والهدوء النسبي القائم على طول الحدود الإسرائيلية اللبنانية منذ ذلك الحين. إن الحسابات الإسرائيلية تنبع من إدراك براغماتي بأن الرد التصعيدي هو ما سيؤدي إلى غياب مؤقت للعنف على طول حدودها. أما حزب الله فقد استوعب فن الاندماج مع المجتمعات المدنية والتستر على قواته التنفيذية من أجل التمويه والتشتيت. ورغم أن هذه الأساليب تساعد على تقليص إمكانية التعرض له، إلا أنها رفعت احتمالية دخول المواطنين اللبنانيين على خط النار، وهذا ما يتقبله حزب الله بكامل وعيه.

إن تصنيف الأحداث التي أدت إلى اندلاع الحرب لا يختلف عما هو ملاحظ عند النظر إلى تزايد الوجود الإيراني المطرد في مرتفعات الجولان. فمن العام ٢٠٠٠ إلى العام ٢٠٠٦، نادراً ما لجأ حزب الله إلى شن هجمات مباشرة، ولكنه شارك في مضايقات مستمرة ساهمت في صرف الانتباه عن تعزيز القوات المعمول به. وبدوره حاول حزب الله إثارة الجيش الإسرائيلي من أجل الرد. وفي الجانب الآخر، فإن إسرائيل تعتمد على جيشها التقليدي بافتراض أن وجوده سيقلل من خطر التصعيد. وكما يخبرنا التاريخ فهذا تصور خاطئ.

(16) Maria Tsvetkova, "Israel, Russia to Coordinate Military Action on Syria: Netanyahu," Reuters World News, September 21, 2015, https://www.reuters.com/article/us-mideast-crisis-russia-israel/israel-russia-to-coordinate-military-action-on-syria-netanyahu-idUSKCN0RL10K20150921.

لم تكن سياسة الردع التي تتبعها الرتب العسكرية والسياسية الإسرائيلية مطلقة. فلقد استغرق حزب الله ٦ سنوات في تجاوز الخطوط الحمراء واستفزاز إسرائيل لإطلاق حملة عسكرية غير مسبوقة في جميع أنحاء لبنان رداً على غارة حزب الله، وهو ما أدى إلى بداية حرب ٢٠٠٦ بين إسرائيل وحزب الله.

ومع ذلك وبسبب التعزيز العسكري السابق والتحضيرات الجارية للاستجابة في حالة التصعيد، تمكن حزب الله من تحمل القصف بامتصاص الضرر والاستمرار في المقاومة الفعلية. بل نجحت أيضاً في جر إسرائيل مرة أخرى لشن غزو بري في جنوب لبنان، وهو ميدان ذو دلالات سلبية في تاريخ إسرائيل العسكري. ومن أجل تحقيق هذه الغاية فإن قوة النيران الإسرائيلية وقدرة حزب الله على استغلال "متلازمة الطين اللبنانية"[١٧] قد مهدت الطريق أمام إعادة تنظيم عدائيتهم .

في المراحل الأخيرة من العمليات القتالية، حاولت إسرائيل تغيير مفهوم حزب الله لدى المتلقي من خلال تطبيق سياسة القبضة الحديدة بالضربة الانتقامية الشاملة. حيث قامت القوات الجوية الإسرائيلية بقصف شامل على الضواحي الجنوبية لبيروت بعد تحديدها بكونها معقلاً لحزب الله. وفي ٢٢ يوليو من العام ٢٠٠٦، قامت القوات نفسها بتسوية الضاحية الشيعية. ويراد من هذه الحملة الجوية الوحشية المفرطة في استخدام القوة استعادة الثقة وإحلال هدوء قائم على الخوف وليس على الحل السياسي. وفي هذا السياق فإن التصريحات الشائنة للواء السابق في الجيش الإسرائيلي غادي ايزنكوت يتردد صداها إلى الآن، ومن المرجح أن تبين موقف إسرائيل في حال هربت إيران من مرتفعات الجولان: "ما حدث في حي الضاحية في بيروت في العام ٢٠٠٦ هو ما سيحدث أيضاً في أي قرية لبنانية إذا ما أطلقوا النار منها على إسرائيل، وسنفعّل ضدها قوة غير متناظرة تتسبب في ضرر ودمار بالغين"[١٨].

أدت الحملة العسكرية الإسرائيلية في لبنان في العام ٢٠٠٦ إلى إبطال مبدأ العين بالعين. فالحملة كانت مفرطة بشكل متعمد لكي تكون عملاً انتقامياً ذا مصداقية. ولذلك فإن "العين بالسن"[١٩] هو الوصف الأكثر ملاءمة وهو المبرر الذي سرعان ما وجد طريقه في الخطاب الأكاديمي الإسرائيلي تحت صياغة «جز العشب»[٢٠].

كما يبدو أن الحكمة السائدة في الفكر الاستراتيجي الغربي مستمرة في وجهة نظرها، لأنها تحاول نظرياً تحديد القيم المرتبطة بالاتفاقات السياسية. ومع ذلك، فإنها تغض الطرف عن الواقع السياسي العسكري الحالي في سورية.

وعلى العكس تماماً، فإن مفهوم الأمن الشامل لإسرائيل يعد أقل طموحاً. فهو مفهوم براغماتي لا يهدف إلى مصالحة افتراضية طويلة الأمد بل يهدف إلى تحقيق غياب مؤقت للعنف. يصف العقيد جابرييل سيبوني من جيش الدفاع الإسرائيلي الحسابات الاستراتيجية على أنها تهدف إلى "إلحاق الضرر وإيقاع العقوبة إلى حد يتطلب العديد من عمليات إعادة الإعمار الطويلة ... سيعلق مثل هذا الرد في أذهان صناع القرار في سورية ولبنان، وهو ما سيزيد من قوة الردع ويقلل احتمالية مواجهة إسرائيل لفترة طويلة[٢١].

وقد أظهرت الحرب بين إسرائيل وحزب الله في العام ٢٠٠٦ لجوء إسرائيل إلى الرد المفرط بوصفه استراتيجية عسكرية مفضلة لها. بحجة أن مثل هذا النهج القاسي قد يكون وسيلة رادعة فعالة طالما أن خطورتها يلاحظها

(17) E. Lieberman, *Reconceptualizing Deterrence: Nudging toward Rationality in Middle Eastern Rivalries* (Abingdon, UK: Routledge, 2013), 197.
(18) Reuters Staff, "Israel Warns Hezbollah War Would Invite Destruction," Reuters World News, October 3, 2008, https://uk.reuters.com/article/uk-israel-lebanon-hezbollah/israel-warns-hezbollah-war-would-invite-destruction-idUKTRE4923I020081003.
(19) D. L. Byman, "*An Eye for a Tooth: Israel's Problem with Deterrence*," ForeignPolicy.com, July 24, 2014,
(20) Efraim Inbar and Eitan Shamir, "Mowing the Grass: Israel's Strategy for Protracted Intractable Conflict," *Journal of Strategic Studies*, 37, no. 1 (2015): 65–90.
(21) Gabi Siboni, "Disproportionate Force: Israel's Concept of Response in Light of the Second Lebanon War," *INSS Insight* no. 74, October 2, 2008, http://www.inss.org.il/publication/disproportionate-force-israels-concept-of-response-in-light-of-the-second-lebanon-war/.

الجميع. وبالفعل فإن الطريقة التي ترجمت بها قوة الردع الاستراتيجية الإسرائيلية بأعمال عسكرية حقيقية لم تدع مجالاً للشك: لكي تعلق بالأذهان شدة ردة الفعل الإسرائيلية السريعة على غارة حزب الله في صيف العام ٢٠٠٦. وقد أوضح ذلك بشدة رئيس أركان جيش الدفاع الإسرائيلي دان هالوتز في ذلك الوقت، حينما ذكر بأن إسرائيل عازمة على إعادة الزمن إلى الوراء في لبنان لمدة عشرين عاماً.[٢٢]

التوقعات المستقبلية

وخلاصة القول: أن إسرائيل من المرجح أن تستمر في استهداف البنية التحتية الإيرانية في سورية من خلال وسيلتها المفضلة «الضربات الجوية المحدودة المؤثرة». ويرتبط مع هذه الجهود الأهمية التي تنسبها المؤسسة السياسية والعسكرية الإسرائيلية لمفهوم الردع وكيفية احتوائه للاندماج الإيراني. وفي حال استمرار التعدي الإيراني في مرتفعات الجولان فلا يمكن استبعاد قيام إسرائيل بضربة انتقامية مفرطة. فتصنيف العداوة الإيرانية والإسرائيلية بين عامي ٢٠٠٠ و٢٠٠٦ واندلاع الحرب في صيف ذلك العام وإعادة تقويم سياسة الردع لاحقاً، كلها تنبئ عن مستقبل الخلاف الإيراني - الإسرائيلي في سورية.

وسيخبرنا التاريخ بأن حدة التوتر والتعامل بمبدأ العين بالعين قد يكون دلالة على أسلوب إيران في التعزيز الثابت والصبور لقواتها بوصف ذلك جزءاً من التحالف المؤيد لنظام الأسد. بالإضافة إلى تاريخ إيران الطويل وتطورها في التدخل المباشر من خلال القوات التي تقاتل عنها بالوكالة، وقد تشهد مرتفعات الجولان ومحافظة درعا في جنوب غرب سورية تزايداً ملحوظاً لقوات الميليشيات في المستقبل القريب.

علاوة على ذلك، فمن المتوقع أن تولي كل من إيران وإسرائيل اهتماماً أكبر لدور روسيا ونفوذها الدبلوماسي في الميدان السوري. حيث ما زالت موسكو هي المؤثر الوحيد الذي يحافظ على القنوات الدبلوماسية والاستخباراتية للخصوم، وهو ما يجعلها لاعباً لا يمكن الاستغناء عنه حينما يتعلق الأمر بضبط آليات التقييد وتنفيذها في حال التصعيد وفشل سياسية الردع. وفي الوقت الراهن، فمن المرجح أن تكثف كل من إيران وإسرائيل جهودهما في التدخل في مرتفعات الجولان التي تسطير عليها سورية. هذا التوجه سيؤدي حتماً إلى خفض سقف تجاوز الخطوط الحمراء وتحفيز المزيد من الانقسامات انطلاق مؤقت للردود العسكرية. وعند هذه المرحلة، فإن فرص وجود تصالح سياسي وإعادة إعمار سورية في المستقبل بعد الحرب ، تعد فرص ضئيلة جداً.

(22) Chris McGreal, "Capture of Soldiers Was 'Act of War' Says Israel," *The Guardian*, July 13, 2006, https://www.theguardian.com/world/2006/jul/13/israelandthepalestinians.lebanon1.

مركز الملك فيصل للبحوث والدراسات الإسلامية

تأسّس المركز سنة ١٤٠٣هـ/ ١٩٨٣م لمواصلة الرسالة النبيلة للملك فيصل بن عبدالعزيز -رحمه الله- في نشر العلم والمعرفة بين المملكة وبقية دول العالم. ويعدُّ المركز منصةَ بحثٍ تجمع بين الباحثين والمؤسسات لحفظ العمل العلمي ونشره وإنتاجه، وإثراء الحياة الثقافية والفكرية في المملكة العربية السعودية، والعمل بوابةً وجسراً للتواصل شرقاً وغرباً. ويرأس مجلس إدارة المركز صاحب السمو الملكي الأمير تركي الفيصل بن عبدالعزيز، وأمينه العام هو الدكتور سعود بن صالح السرحان.

ويقدّم المركز تحليلات متعمّقة حول القضايا السياسية المعاصرة، والدراسات السعودية، ودراسات شمال إفريقيا والمغرب العربي، والدراسات الإيرانية والآسيوية، ودراسات الطاقة، ودراسات اللغة العربية والحداثة. ويتعاون المركز مع مؤسسات البحث العلمي المرموقة في مختلف دول العالم، ويضمّ نخبةً من الباحثين المتميّزين، وله علاقة واسعة مع عددٍ من الباحثين المتخصّصين في مختلف المجالات البحثية. ويحتضن المركز مكتبة الملك فيصل، ومجموعة مخطوطات نادرة، ومتحفاً إسلامياً، وقاعة الملك فيصل التذكارية، وبرنامج الباحثين الزائرين. ويهدف المركز إلى توسيع نطاق المؤلَّفات والبحوث الحالية لتقديمها إلى صدارة المناقشات والاهتمامات العلمية، متّبعاً مساهمة المجتمعات الإسلامية في العلوم الإنسانية والاجتماعية والفنون والآداب قديماً وحديثاً.

مركز الملك فيصل للبحوث والدراسات الإسلامية
King Faisal Center for Research and Islamic Studies

ص.ب ٥١٠٤٩ الريـــــاض ١١٥٤٣ المملكة العربية السعودية
هاتف: ٤٥٧٧٦١١ (١١ ٩٦٦+) تحويلة: ٦٨٩٢ فاكس: ٤٦٥٢٢٥٥ (١١ ٩٦٦+)
بريد إلكتروني: masarat@kfcris.com